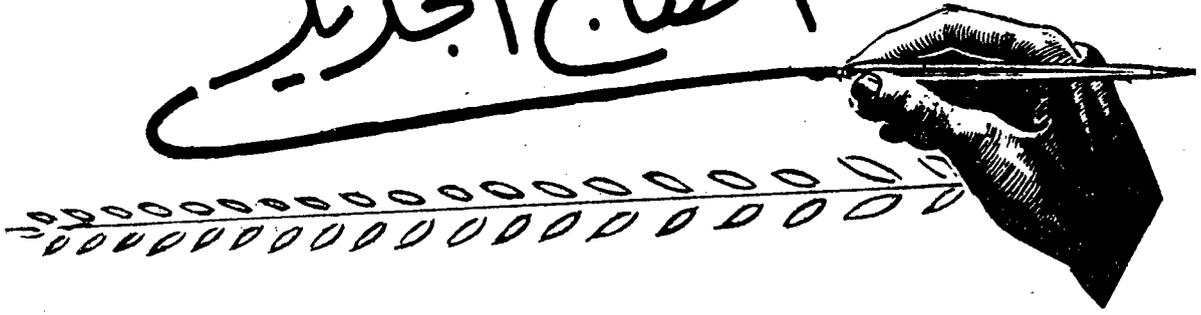


النتائج الجديدة



حتى القطرة الأخيرة

مجموعة قصص بقلم فارس زرزور

من مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي



لقد كانت وزارة الثقافة والإرشاد القومي في هذا العام على موعد في اخراج مطبوعات مختلفة - ولعل أكثر عنايتها تتجه نحو السلسلة القصصية التي رعتها ، واكثرت من تبنيتها .

ومن هذه السلسلة مجموعة قصصية لصاحبها الأديب فارس زرزور. تحتوي على إحدى عشرة قصة ، صبت من معدن واحد ، واتجهت نحو هدف واحد . قد اختلط فيها الزمان والمكان ليعبرا عن بطولات شعبية هادئة قام بها افراد من شعبي في معركة البطولات*.

واني على كرهى لكل اتجاه - في الأدب - يتفعل الحوادث ، ويتكلف الأفكار ، لم يسعني الا الوقوف عند هذه المجموعة باعجاب ، لان صاحبها استطاع ان ينفذ من الحيز الضيق ، الى حيز اوسع ، تتسلسل فيه الصور الناطقة ، ويمتد فيه الخيط الانساني ، الذي يربك الإبطال قد جادوا بانفسهم لجرد الجود ، وقاموا ببطولتهم ، لانهم يؤمنون بالمثل الأعلى الذي يقف فيهم حس البطولة ..

هنالك قصة « حتى القطرة الأخيرة » التي سميت المجموعة باسمها ... وهي قصة جندي كلف بحماية رفاقه اثناء الانسحاب من اغارتهم على مستودع العدو .. اصيب ساعده اليسرى ... فاحسن ان لم يعد يستطيع الاستفادة منه .. واعقب هذا اليقين شعور بان كل شيء قد فات .. ودغدغت احساسه اشياء سموها ... الفراغ والراحة ، والنوم الابدي ..

وراحت عيناه تذبلان ، وتوحيان اليه بانه اذا ضم جفنيه ، وراى بينهما ملك سعادة ابدية .. سعادة فوق سعادة البشر . وتمثلت له الحياة الغالية طفلا صغيرا اسمه النوم تهزه امه هزا رقيقا ، وهو يطبق جفنيه بهدوء وهناء .

ولكنه يصحو فجأة .. لم يدرك كم مضى من الليل ، وتطلع الى السماء ، فوجد النجوم تتفامز ، واحس مرة ثانية بانه يشارك النجوم السهاد .. النجوم .. هذه المخلوقات الضئيلة في السماء ، انها تشتهي النوم .. لقد نقصت قليلا عن ذي قبل ، لا شك انها ذهبت لتنام ، ولاك لسانه في فمه ، فوجد ، هابسا كالحطبة ، ومد يده الى مطرته فوجدها فارغة .. وتحسس السلاح .. كان باردا كالثلج .. صامتا .. اسود .. اخرس لا ينطق .. لا باس ، ووصلت يده الى المخزن المملوء بالخرطوش فوق فتحة الرشيش ، كان ثابتا جاهزا .

واحس بيد ساخنة تهدد ظهره .. ثم .. ثم ! ايها الطفل الصغير! وراى الملازم يقلده وساما حربيا كبيرا ، بينما امه تكي من الفرح ، واخته الصغيرة تفني أغنية حزينة ، ووجهها مطلي بطلاء اصفر ... كل

شيء اصفر .. حتى الوسام كان اصفر .. والملازم يرتدي بزة صفراء ثم راى نفسه ياكل بطيخة خضراء ، مرة وحامضة . احس بعد هذا بالثقيان ، فاراد ان يتقيها فلم يستطع ، واحس بالالام .. وراحت امعاؤه تنفتت ، قطعة اثر قطعة ، فسفحت امه على بدنه العاري سطل ماء ساخن ، ساخن جدا ، ووقع السطل على راسه فاحدث .. احداث انفجارا اهتزت له الارض ، وتصاعدت السنة عالية من اللهب تلاها انفجار ... وانفجار .

وفتح عينيه ، كانت اصبعه تصفط على الزناد ، ومن فوهة الرشيش ينطلق انبوب طويل من النار يصل الى بناء ابيض ، ويخترق نافذتين كبيرتين الى جانب السنة اللهب التي تغزو السماء .

وفي الساعة الثالثة من صباح السادس عشر من ايار سنة 1٩٤٨ تلقى امرا من افواج الحدود البرقية التالية :

نفذت المهمة .. الخسائر شهيد واحد .. هو هذا الجندي نفسه .

والان اطلب له وساما ..

في هذه اللوحة على ايجازها صورة مكتظة بالصدق والتصوير الواقعي ، والالوان المعبرة ... فالجريح لا يمكن ان يوصف باحسن مما وصف في هذه اللوحة ... من ضياع ، واحساس محذر بما حوله ، ثم يستيقظ فيه شعور الواجب . فيتحامل على نفسه ليؤدي مهمته ، لانه يعتقد بان حياته لم تعد ملكا له .. وانما هي ملك رفاقه الفدائيين الذي يرتقبون ان يبدأ .. ومن خلال هذه الحياة التي انتهت بالانفجار يلوح « وسام » هو كل ما كوفئت به هذه الحياة .. هذه الحياة التي كافتحت حتى القطرة الأخيرة ..

وفي القصة الثانية « حفنة من تراب » قصة رجل مهاجر يعود الى وطنه ، ولاول مرة تراوده في حياته فكرة الوطن .. الذي ترك فيه امه المعجوز تتشاب ، وليس له عن ابيه اية صورة حية ..

وجد قريتها هي نفسها : بضمه اكواخ طينية ، متفرقة ، منطامنة ، التراب نفسه ، والقش نفسه ، والساكنون انفسهم ... رجال ونساء واطفال وكلاب . كلهم يسرون بكلل ، ويستلقون تحت اشعة الشمس لا شيء جديد ، ها هي عشر سنوات مضت في الخارج ، بيد انهم هنا لا يحسون بمرور الزمن . سنة سنتان ، قرون ، كل شيء هاديء ، الشمس تشرق وتغرب ، والمطر يهطل ويتوقف ، والكلاب تعوي ، واطفال يولدون ويموتون ، يخرج الانكليز ، وجاء اليهود ، والخراب هو الخراب .

سال عن امه ، فاذا هي ميتة منذ ثلاثة اشهر .. انه الان غريب .. غريب حتى على نفسه ، والقرية مهددة في كل لحظة بهجوم اليهود ..

لماذا جاء اذا ؟ هل يترك كل شيء ، وينسى كل شيء الا نفسه ؟ ولكن هذه النفس الا يجب ان تتلبيء بشيء ؟ ان تختزن ذكرى من الذكريات ، عاطفة من العواطف .. اشياء تسليه ، تسعده او تعذبه ، اشياء تشمره بانه انسان .

بل هو تصوير عميق اضفى الحياة على الاشياء ، لتشارك الاحياء ، وجعل من الشجرة رمزا بعيد الدلالة لهذه القوة الدافعة التي تستكن في نفوس هؤلاء المدافعين عن الحدود .

بمثل هذه الصور الدافعة ، والسردي السليم ، واللغة الصافية تطلع علينا هذه المجموعة التي تبشر لصاحبها بمستقبل رائع في مجال القصة .

خليل الهنداوي

حلب



أمطار

شعر : محمد سعيد الصكار

مطبعة الرابطة - ٤٨ صفحة من القطع الصغير

*

هذا شاعر يبرهن لنا من جديد على ان الشراء الشباب عندما اتخذوا طريقة الشعر الحر للتعبير عن تجاربهم وانفعالاتهم لم يتجهوا ذلك الاتجاه لغرض التخلص من دراسة الاوزان التقليدية او لقصور في قابلياتهم او مواهبهم الشعرية .. اذ يحتوي هذا الديوان على قصائد نظمت في طريقتي الشعر الحر والشعر العمودي ، وهذا يؤكد من جديد على ان التجربة او المانة هي التي تحدد طريقة التعبير لكي يستطيع الشاعر ان يقدم لنا قصائد ناجحة لم يفكر قبل ابتعاها بالبحر والقوافي التي سيستخدمها .. وانما يكتبها في لحظة شعورية هي التي تحدد التفاعل التي سيستعملها والتي تتفاعل موسيقاها مع موضوع القصيدة .

يضم هذا الديوان ثمان عشرة قصيدة تعتبر اجود مانظمه الصكار من شعر خلال اثنتي عشرة سنة .. فقد اسقط من ديوانه قصائد كثيرة هي دون مستوى القصائد التي يحتويها الديوان . من اروع القصائد التي يضمها الديوان قصيدة « غراء عندما نلتقي ص ٤٣ » التي نظمها الشاعر في الفترة الواقعة بين تشرين الثاني ١٩٦٠ وشباط ١٩٦٢ .. وقد يبدو هذا الامر عجيبا ، فلوب سائل يسأل وكيف وكيف الشاعر نفسه لتجربة واحدة خلال مدة طويلة كهذه المدة ؟ انني اتصور ان الشاعر كتب جزءا من هذه القصيدة وانشفل عن اتمامها للمهام الكثيرة الملقاة على عاتقه سواء كانت هذه المهام ادبية او دراسية او تتعلق بكسب العيش ، وبعد انتهاء فترة من الزمن مرت بالشاعر حادثة اخرى ايقظت في اعماقه التجربة الاولى او ولدت تجربة مماثلة الامر الذي ادى به الى اكمال القصيدة .

نجد في هذه القصيدة عصاره روح الشاعر .. فقد عانى النشرد والغربة في العهود الحالكة التي مر بها الوطن الحبيب ، كما ان شاعرنا ممن يذنبون اعصابهم لتقديم الحروف الخيرة للناس ، ان كل هذا اضافة الى تجربة حب عتيقة هو ما تركز عليه هذه القصيدة .. والان لنقرأ بعض مقاطعها التي تبدو فيها اللوعة مثارا للاعجاب ..

عندما اطلب من عينيك ان تستبدلا شيئا بحبي

فانا اعلم انبي

ربما اظفيء في دربي صباحا

ربما اكر في الغيب جناحا

فاعذرتني

لاتقولي : « خاني .. »

فالحب يدري ان قلبي

لم يخن يوما صديقا

هكذا يغني الشاعر في المقطع الاول من القصيدة وعندما يحاول ان

يررد مقاله انفا ... يرتفع صوته من جديد :

واحس ، لأول مرة ، في حياته بان نفسه عارية ، عاربه عسى الاطلاق ، فارغة ، فاحلة جوفاء ، لا يملأها شيء ، المال ، الذهب ، الحياة المترفة ، ماذا فعلت هذه الاشياء ؟ ترى ، هل هذا هو الوطن ؟ هذا الحب ، هل هو حب الوطن ، حب الارض ، وحب التراب ؟

راح الرجل بين ابويه ، بين قريههما ، يستنبت مشاعره ، ويدغدغها وينميها ، ان ذلك شيء جديد بالنسبة اليه ..

- هذا بيت ابوي ! هنا يسكنان ، هنا وطنهما في هذه الارض .

ومد يده الى القبر :

- تراب .. تراب خشن !

وغرس اصابعه في القبر ، فلذغته شوكة حادة ، واستخرج قبضة من التراب ، وراح يعصرها عصرا شديدا حتى دميت انامله .

- هل لهذا التراب من رائحة ؟ ليست له رائحة معينة . غير ان فيه حياة .. حياة اناس ماتوا ، اعزاء عليه ، حياة غريبة ، لا تشبه اي حياة من الحيوانات ، غير انها حياة ، كحياة الانسان ، لقد بدأ يشعر بها ويحسها ، بل يعيشها باعمق جوارح كيانه كله .

- انه لم يحارب في حياته ، غير انه الان مكلف باللذود عن شيء ، سيدافع عن قبوري والديه ، عن الارض التي تضمهما ..

ورفع عينيه ، ونظر حوله ، هل اصابه دوار ؟ ان القبور تتحرك يبدو انها تتقدم او تاخر ، وهذه الشواهد ؟ انها تبرز شيئا فشيئا كأنها هي جنود يبتون من الخنادق استعدادا للهجوم ، واصاخ السمع ، ما هذا الدوي الهائل ؟

وهؤلاء بنو قومه يحملون ادوات الموت كما يحملون فؤوس القطع ، ومحاربت الفلاحة . لا بد ان لكل منهم شيئا يدافع عنه .. ارضا ، بيتا ، شجرة ، قبرا .. او ذكرى من الذكريات ..

هذا المهاجر البعيد ، جذبه التراب .. تراب وطنه اليه ، وعاد رجلا واحدا من هؤلاء الرجال الذين يغودون عن ترابهم .. وبهذا اليبسان الجديد المتفتح ، طوى كل علاقة له بالمهجر الذي جاء منه .. لان روابط الوطن اقوى من كل شيء ..

ان هذه القصة وامثالها لا تجتذب القاريء ببراعة سردا فقط ، ولا بنيل غايتها .. لان الكاتب اوتي ، فوق ما اوتي من البراعة القصصية مخيلة شعرية تربط ما بين الاشياء والاحياء بخيوط دقيقة تجعل مسن هذا الواقع الواضح عالما غريبا ، ملتفا بالضباب ، والشعور الخفي .. وهذه الميزة عندي هي ابين ما يطلع عليك من خلال هذه الاقاصيص ، لان قصاصينا الذين يلتزمون الواقع يكادون ينقلونه نقلا حرفيا مشوهما ، دون ان تكون لديهم القدرة على خلقه مرة ثانية بالالوان والاحاسيس التي تجود بها الحياة لأول مرة .

ولعل القصة التي تتبدي فيها بطولة الطبيعة هي قصة « شجرة البطم » واجدا فيها القمة التي بلغها هذا الكاتب .. وهي شجرة تشمخ في اعالي تل العزيزيات جبارة عاتية ، منتصبه دائما ، صامتة لا تنطق ... في يوم ما تساقطت اوراقها - ورقة ورقة - كالدموع عندما شوهت الحرب قوامها ، فثقب الرصاص صدرها ، وشقق لحاءها . اما جذورها فبقيت متشبثة بالارض ، تريد ان تحتفظ بالتراب الذي تحيا منه وتميش فيه . والشيء الوحيد الذي يحزنها انها لا تستطيع ان تظلل .. وكان لا يزال يوجد في اعلى قممها بعض وريقات مثقوبة تطير حولها الصافير ، ثم تغادرها خائبة الى شجرة اخرى لتبني عشها الاخضر .. وحين يمر الجنود من حولها .. يعتبرها بعضهم محاربا عظيما خاض معارك طويلة ، خرج منها رافع الرأس ، ونقشت على صدره اوسمة النصر ، وبعضهم الاخر يتخيلها اما عجوزا فقدت اطفالها ، فرفعت اذرعها اليابسة الى السماء ..

هنالك جنود حفرها اسماءهم على قشرها ، ثم عادوا يقرأون ذكرياتهم باكام فارغة ، وانكا عليها اخرون بارجلهم ، ثم رجموا يزورونها على عكاز ... وظلت هذه الشجرة تحرس الحدود .. وقد اقسمت ان تحافظ على الارض التي نبتت فيها وعاشت بها ..

ان في هذا التصوير حياة ابد من تمثل حياة الشجرة وحدها .

آه يا مبهورة العينين .. يا مرفا قلبي

متعب ..

هل كنت يوما متعبة ؟

هل تحسست اختلاج القصبة

في أزيز الريح ؟

اني مثل تلك القصبة

متعب .. انهكني البحر واضناني انتظاري

وانا اعقد جفني على قمة صاري

حالمًا ..

ياكلني الشوق الى نكهة دار

ان الشاعر هنا استطاع ان يرسم لنا صورة لشخصيته ، انه انسان

نبيل يتطلع نحو آفاق اوسع يريد ان يضع الشمس على جبينه ويسير

في درب تلالا على جانبيه الحروف والغضرة .. والشاعر بعد هذا

انسان جريح لا يستطيع ان يقول لحبيبتة انتهيئا .. وانما يعود ليقول :

فسالفاك كما يلفاك بعض الغرباء

جمل تائهة المعنى .. واشلاء تحيه

شنجتها دفقة الذكري ..

وهزتها بقيه

من رياح الامس ..

ما اصعب ان ننسى رياحه !

آه .. ما أوجع ان يوقظ انسان جراحه

آه ما اتعب ان ينسى ..

جراحه !!

ان الشاعر الجريح يحار في جراحه فما أوجع ان يوقظها وما

اتعب ان ينساها ؟. ومن هذا المنطق يشعر باللوعة والغربة .

ولعلنا نستطيع ان نلمس بوضوح الاحاسيس المختلفة الصاخبة التي

يزخر بها الصكار في قصيدته « بطاقة ص ٩ » .. ان هذه القصيدة كما

اتصور تمثل مشردا يود ان يكتب الى ابنته .. ولكنه يتساءل قبل ذلك :

ماذا ساكتب في البطاقة !!

أفيستطيع الحرف .. هذا الحرف .. ان ينيك عني ،

ان يحمل الامل الجنج .. والحنين .. والف باقة

من زهر اشواقك اليك

ان يفتح الافاق في وجهي فابصر مقلتيك

وأرى ابنتي .. بيتي .. ربيعي كله في مقلتيك !

ماذا ساكتب ؟. ان اشرعة الحنين

تطفو على شفة البطاقة ..

ويبقى المشرد الغريب ساهما يريد ان يكتب الى ابنته حروفا ملتبهة

تعب عن مشاعره الصادقة .. حروفا تشدها الى الافكار التي شرد من

اجلها .. ولكن الحروف تضيق في غمرة مشاعره الصاخبة فيهتف من

الاعماق :

لو انني ارويك من قلبي ..

واسفيك اشتياقه

لو انني اعطيك ذوب دمي ..

وأمنحك احتراقه

لو انني أسطيع يا ظمًا البطاقة !!

ان أي نتاج أدبي كما نفهمه هو مرآة لروح الاديب .. ومن هنا

نستطيع ان نتوصل الى النزعات والنزوات والمشاعر الذاتية التي اكتفت

الصكار خلال عمره الشعري .. فالواقع ان قصائد الشاعر قبل الثورة

متفائلة تشرق بروح العزم رغم تشرده ونضاله المرير الذي يعكس جانبا

منه في قصيدة « القمر ص ٢٤ » :

هاهما عامان مرا

ياصديقي ..

انا لم ابصرك يوما في طريقي

منذ ان كنا نغني للقمر

منذ ان فرقنا الخفاش تلك الامسية

حيث اغرتك عصابات البتر

وانا غيبتني السجن ..

وفي صدري قمر

ان في هذه القصيدة اشراقه من العزم فالشاعر عندما غيبه السجن

بقي القمر يشع في صدره .. ولعلنا نلمح التفاؤل مرة أخرى في

قصيدة (ستكون الشمس عمودية ص ١٢) فرغم كون هذه القصيدة تمثل

تجربة عينية يحسها الشاعر عندما يراقبه مخبر يصطاد الهمس من

شفاهه .. اقول رغم ذلك كله يناجر، الشاعر امه بنداء عذب مشرق :

لا تبكي يا امي

ان شممت ظللا اربعه

من شفتي تصطاد الهمس

تحسب خطوي

وتلاحفني حتى الرمس

واما التفاؤل فهو يتجلى في هذا المقطع :

ستكون الشمس عمودية

وتدوب ظلالي المحموه

واسير

أسير .. بلا ظل

ان الشمس العمودية التي يرمز اليها الشاعر هي فجر التحرر الذي

يتامله .. وما ظلالة المحموه الا تلك القيود الرعناء التي تشده الى

هوان دائم .

وهناك خمس قصائد اخرى نظمها الشاعر قبل الثورة تشرق بنفس

الروح التفاؤلية وهي (موسكوفية ص ١٥) و (عصفور ص ٢٩) و (مصباح

ص ٤٧) و (الجدار ص ١٨) .. واما قصيدة (لسات ص ٢٢) فهي بلا

تاريخ ولا نستطيع ان نستشف منها الا التهافت والخيبة .. فالشاعر يقول

في مطلعها :

أريدها .. أريد ان ارتمي في حضنها بمد عشاء السفر

أريد ان ابكي على صدرها اشج مثل الطفل .. مثل المطر

ان كلمة (اريدها) توحي للقارئ بطلب طفولي بالك (اريدها

... اريد ان ...) والشاعر نفسه يبرهن على ذلك في قوله (اشج

مثل الطفل .. مثل المطر)

وفي القصائد التي نظمها الشاعر بعد الثورة نجد تغيرا ملموسا

في شعره .. انه لا شك تقدم في مجال الشعر ، ولكن مميزات شعره

قد تغيرت وتبدل التفاؤل والاشراق بغربة وخيبة وعمة ووحشة ..

فشاعرنا بدأ يحس بهذه الاشياء تدريجيا ، ونستطيع ان نعلل ذلك

باشياء شتى منها ان الشاعر بعد ان استقر اكثر من السابق وانصرف

الى ذاته احس بظماه في جميع المجالات .. انه يبحث عن افاق اوسع ..

عن محيط يسمح له بان يعمل ما يشاء وبالتالي فهو يبحث عن مطامحه

المديدة ويكي ايامه السابقة التي قضاه في العذاب والتشرد والتطواف

في المدن البعيدة .

ان القصيدة الوحيدة التي نظمها الشاعر بعد الثورة التي

تتخلص من الميزات السابقة هي قصيدة (العنوان ص ٢٦) :

اني لاستعيد ساعة اللقاء

اذا كنت تسألين عن عنواني البعيد

وكنت احكي لك عن صلافة القيود

في موطني ..

وانني ..

يا غادتي الشفراء ..

لا عنوان لي !!

ان ما نفهمه من فكرة القصيدة هي ان ذكريات الشاعر عادت به

الى ايام التشرد حيث التقى بهذه الغادة الشفراء وحدتها طويلا عن

صلافة القيود في موطنه .. ولكن غادته طلبت عنوانه فلم يجيبها الا بان

لا عنوان له .

وبعد ان عاد الشاعر الى وطنه واصبح له عنوان ثابت اراد ان يكتب لغادته فبدأ يبحث عن عنوانها ويقول :
 أنا هنا اكاد احرق الورق
 بنظرتي .. بحثنا عن العنوان
 اريد ان اهديك اشياء .. وان اقول
 ما لم اقله ساعة اللقاء
 اريد ان اكتب .. ان اقول ما اشاء
 لانني استطع ذلك الان
 لكننا العنوان !!..

ولعل مميزات شعر الصكار بعد الثورة تبدو في جميع القصائد الاخرى التي نظمها في الفترة المذكورة فلنقرأ المقطع التالي من قصيدة (اغنية العود الى سوزنتو ص ١١)

للمرة الالف صحبت الصوت والنبره
 احسست طعم الفرح الغامض والحسره
 احسست طعم التحاس
 على شفاهي ..
 اه يا ليمونة مره

لا تسرفي في الفناء
 لا تفتحي في جبهتي حفرة

ان هذا المقطع جميل وينساب انسبابا موسيقيا يتفاعل مع موضوع القصيدة ولكن تعبيره (لا تفتحي في جبهتي حفرة) بداية تعثر خفيف في المعنى والموسيقى

واذا اردنا ان نبحث عن الخيبة والحزن في هذه القصيدة لنقرأ المقطع الاتي :

اريد ان ابكي ولو مره
 ان ارتمني في بركة الاحزان
 اخبو نظرة .. نظره

وفي قصيدة (القصيدة الناقصة ص ٢١) نجد الوحشة والضياع والفشل :
 وانا موحش وزوبمة الايام تدمي وجهي .. وتهدم زندي
 انا وحدي اهز صمت الليالي لاهت الحس، غامض الشوق، وحدي
 اتخطى دروب ليالي وارنو فارى وجهك النيدي عندي
 ونجد الاجواء السابقة نفسها في قصيدتي (وحشة ص ٢٨) و (البحر ص ٧) .. ولعل القصيدة الاخيرة تمثل خوفا من المجهول وخيبة اشد ما تكون :

ماذا ستفعل لو تهشمت السفينة

ماذا ستفعل ؟

لو غصت مثل الطين في البحر العظيم ??

ماذا ستفعل !?

.....

ساموت من حزني عليك

بقيت في الديوان اربع قصائد .. اثنان منها يقلب عليهما طابع السرد والكلام العادي هما (طيفها ص ٤٦) و (اليها ص ٢١) والثالثة قصيدة نستطيع ان نقول بانها لاتحمل مميزات شعر الصكار بعد الثورة وهي قصيدة (الى دفتر ص ٤١) منها :

احس في صفائها رعشة والمخ الصمت على دربها
 هذي الرؤى كم ندغدت قلبها واختنقت خجلها على هديها
 واما القصيدة الرابعة وهي (وحشة ص ٢٨) سنتحدث عنها في بحثنا (القرية والحنين في الشعر العراقي المعاصر)
 الذي أرجوه للصكار في الختام ان يفتح على تجارب جديدة ترفل بروح العزم والتفاؤل والصفاء فانه شاعر تجد الكلمة الخضراء في شعره تألقا وجمالا وروعة .

خالد الحلبي

بغداد

صدر حديثا

تأملات وجودية

بقلم الدكتور

زكريا ابراهيم

- لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل
- خواطر ويوميات تشتعل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .
- مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلقة الجفاف الاكاديمي .
- كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

منشورات دار الاداب

الثلث ٢٠٠ ق.ل

العيب

رواية بقلم يوسف ادريس

*

مرحلة طويلة فاسية يخوضها الكاتب حتى يصل الى شيء ينتهي عنده .. فاما ان يموت ، واما ان يصل الى القمة التي يرى الناس منها ويرونها . والسماوات التي تؤكد وصول الكاتب الى هذه القمة ان لم يقدر له الموت تنعكس واضحة في شيئين :

البساطة ، وهي شيء يبلغه الكاتب بعد جهود طويل مضن يمزق خلاله الالاف والالاف من الصفحات ، ويستنفذ جهدا وطاقة ويمر بتجارب كثيرة متشابكة تنصهر كلها وتأنف حتى تصل به الى مستوى يكفل له ان يعبر عن فكرته بالطريقة التي تهوى للقاريء تذوقها واستساغتها . والشئ الاخر - هو عدم تقيد القاريء .. عدم الزامه بالفكرة او فرضها بصورة املاية دون ابراز مبررات تقنمه حتى تصبح جزءا جديدا من افكاره هو . وهذا يلزم الكاتب ان يضع القاريء امام جميع المتناقضات التي يشملها موضوعه . ومن خلالها يستطيع ان يصور الحقيقة كما يطلبها هو .. وكما يريد القاريء في الوقت نفسه ...

ويوسف ادريس احد هؤلاء الذين تتبعوا هذا المنهاج ووصلوا تلك القمة . ونستطيع ان نلمح ذلك واضحا في اعماله ، من « جمهورية فرحات » حتى « العيب » .. فالقاريء يرى نفسه في « جمهورية فرحات » امام الوان متعددة من المتناقضات والثغرات التي يوجدتها المجتمع في حياة الانسان ، متمثلة في « فرحات » ذلك الصول المعجوز الذي وضع في مكان يحكم الوظيفة ليحل مشاكل الناس ويحافظ على امنهم وسلامتهم بينما يحس في اعماله حاجته الكبيرة لمن يحل له مشاكله ويحافظ عليه ويضمن له السلامة ولو على الاقل من « معاون البوليس » .. ولا يد من ان تحدث هوة نتجه لذلك في اعماق الانسان .. ثم الهوة الثانية بينه وبين المجتمع . ولعل ذلك منشأ الفجوة الواسعة بين الشعب والبوليس في جمهورية فرحات .. وتحقيق البطل .. تماما مثلما حدث في « اللحظة الحرجة » التي يتمثل فيها التناقض الهائل بين « سعد » ذلك الشاب الجامعي وقائد فرقة الفنانين بالجامعة وفي الوقت الذي لا يكف فيه عن ترديد الشعارات « والجمجمة » والهتافات ، يتملكه في فراره الخوف والفرع من ملاقة اللحظة الحرجة بينما يواجهها اخواه العامل الفطري البسيط الصامت بثبات وثقة حقق من ورائها نصرا كبيرا .. وهكذا ايضا سقط سعد او البطل .. مثلما سقط فرحات تماما ..

ولكن يوسف ادريس في كل مرة كان يأخذه الاشفاق من اخفاق ابطل قصصه وموتهم فبعثهم من جديد في صورة او في اخرى . فوجد ان فرحات لكي يتفادى « الهوة » ولكي يهرب من واقعه الذي خلقها له ، يبني جمهوريته التي يرى فيها اماله واحلامه وراحته ومشله . وهذا البعث الوهمي لا يجدي في قليل او كثير . فرحات الذي يحلم وان كانت احلامه في حد ذاتها افكارا لها نتيجتها الا انه لم يتحرك خطوة واحدة ليحقق شيئا من ذلك . وهذا يعني انه بعث لكي لا يموت .. اما ان يفعل شيئا ... فلا .

وفي اللحظة الحرجة بعد ان اخفق البطل وسقط دون ان يحقق شيئا من دوره نجده يبعث من جديد ، عندما تدفعه امه لياخذ بثأر ابيه من الانجليز ويحمل السلاح ليخوض المعركة .. واننا لا نستطيع ان نتصور كيف يتحرك شاب جامعي مثقف ليحقق واجبه نتيجة لكلمات امه وليس نلبية لنداء ضميره ..

وهنا رأى الكثير من النقاد ومن بينهم الدكتور « لويس عوض » ان بعث البطل في القصة من بعد سقوطه خاصة لو كان موضوعها من بسين الموضوعات التي تلتحق بالوطنية او الدفاع عن الشرف او ما شابهه ذلك هو بعث خاطيء ، لا يجب ان يتناوله فلم الكاتب بل يجب ان يسقط البطل للابد حتى يشعر القاريء بانه « كافر » وان السقوط هو الشئ

الطبيعي والنتيجة المؤكدة له .. ويبدو ان يوسف ادريس قد آمن بذلك .. واتخذ من سقوط البطل للابد بشئا جديدا للقاريء . وهذا ما فعله في قصة « العيب » وهي التي جسم فيها المتناقضات بشكل يجعلك تتخذ موقفا مينا من كل شخصية من شخصيات القصة . في الوقت الذي لا يسلبك فيه حرارة الانفعال . فمندا « ينحاز » القاريء لشخصية معينة يتأثر بها .. ويشفق عليها .. ويتحمس لها .. ويعيش آمالها وآلامها .. وربما يردد هتافاتها .. يجد نفسه وبنفس الانفعال يملك طاقة هائلة من الشعور بالاحترار او النقد ، او الثورة على الشخصيات الاخرى .. اي ان الجانبين يسيران معا .. بنفس القوة . ونفس المشاعر والاحاسيس .. ليتجسم الجانب الخير ، وينسجم ايضا الجانب الشرير او السيء في المواقف الانسانية ، اي ان القاريء يعيش الحالتين معا بما يشتملان عليه من رضاء .. وسخط ... وقلق .. وراحة ، وثورة ربما تقوده لان يحدد بنفسه معالم فكرته .

فالقصة تبدأ بتعيين « سناء » وخمسة من زميلاتها في احدى المصالح الحكومية التي لم تطوئا اقدام « فتاة » من قبل .. وكانت وفقا على الرجال ... والرجال فقط لهم اسرارهم وحياتهم وعملهم .. ومثلما ازدحمت المصلحة يوم وفاة « سعد زغلول » او يوم طرد الملك .. ازدحمت بنفس الطريقة والاهمية يوم وصول « الفتيات »

ودخول هذا العنصر الجديد الغريب « المتطفل » على حياة الرجال في المصلحة . كان له وقعته السيء في نفوسهم .. فهم ليسوا رجالا اولا حتى يكون الامر عاديا حتى من الناحية الشكلية .. ومن جهة اخرى فالرجال لهم « قانونهم » الازلي الذي انفقوا عليه فيما بينهم وتوارثوه جيلا اثر جيلا . ولهم ايضا منظفهم الذي اصطنعوه ويسمونونه « اكل العيش » والذي لا يمكن لاي فتاة ان تفهمه .. ولذلك تنبأ الجميع لهم بالفشل ... سواء في العمل .. او في « اكل العيش » واستحالة بقائهم في هذه المصلحة .. تماما كما لا تستطيع ان تتصور ان توجد فتاة او سيدة في جناح الملابس الداخلية الخاصة بالرجال مثلا .. ومن هذه البداية ، يجد القاريء نفسه امام شيئين .. الواقد الجديد .. ذلك السر الذي لم تنكشف اغواره بعد . وان كانوا قد تنبأوا جميعا لهم بالفشل .. والشئ القديم بعاله المفاق واسراره ومثله .. التي لم يكن يرغب احد منهم الا ان تبقى على ما هي عليه من كتمان حتى الى ما بعد الابد .. وعندما تبدأ ساعات العمل ... ولا يبدأ العمل .. وتجد سناء نفسها في مكتب « التصاريح » وسط اربعة من الرجال وجدوا انفسهم غير قادرين على التحدث عبر المكاتب كما اعتادوا . والقلق والوجوم الذي يلفهم جميعا ... وتمنوا لو عادوا كما كانوا اربعة .. اربعة رجال لا سناء بينهم .. هكذا دون الافصاح عن سبب ، ودون الافصاح عن لونهم .. فلا شك ان لهم لونا خاصا غير سائر الناس .. لونا خاصا بهم دون سواهم . ربما لون محمد الجندي زميلهم . تلك الشخصية « الزلجة » الزيتية التي تتمثل فيها السوقية في اعلى مراحلها .. مخلوق ، كاذب ، مستهتر يملك زوجات ثلاثا .. ووصيدا من الاولاد لا بأس به .. ولا مانع عنده من ان يضيف رابعة او خامسة ووصيدا من الاولاد اكبر .. وهم جميعا بلا استثناء يشتركون في هذه الصفات ويتقاسمونها وان تفاوتت النسب .. ويقف الجندي كنموذج للسوقية وجها لوجه امام سناء وهي الانسانة البسيطة الفطرية والتي كانت الوظيفة هي اولى تجاربها والتي تحمل عبء اسرتها ونفقات أخيها الاصر الذي يتعلم في احدى المدارس .. اي ان دورها هنا لا يختلف عن دور اي رجل صاحب متاعب وهموم ويفكر كي يعيش .. ولا يمكن ان تلتقي السوقية في نقطة واحدة مع اخلاص الانسان للناس ولنفسه .. وكان لا بد من ان تصطم المثل التي تحملها سناء .. مع الحقارة التي يحملها الجندي .. وتزداد ازمة سناء من تصرفات الجندي وكلماته التي يتفوه بها ونظراته التي تلتهم ويشراهة كل شيء فيها ... المغالطات العنيفة السمجة الفاضحة ، وتجد نفسها امام كل هذا وكان شيئا يلجم لسانها وحواسها وعقلها من ان تثور .. وتجد ان الامر قد اضحى اكبر من تقصصه على مسامع امها .. وتعيش بالدموع والقلق والضيق . فمسؤوليات الاسرة وتربية أخيها

.. تدفع نظيرها راحتها وآمالها ودموعها .. ولعل أهم ما يزيد قلق الإنسان هو ان لا يجد من يفرغ نفسه فيه ..

وكان لا بد من ان تبرز علامة استفهام كبيرة .. لماذا ؟ .. هذا الوجود الذي علا سحنات الزملاء الاربعة ، والقلق الذي يخفي وراءه شيئاً يخشون افتضاحه .. وعلامات استفهام اخرى لاسئلة كثيرة ، تدور وتدور .. وتظل مغلقة لفترة ثم لا تلبث ان تنكشف ولا تعود سرا مقدسا من اسرار المصلحة . فبدأت « تعلم من بيده الحل والربط ، ومن بيده النقل والانتداب والعلو ، ومن الذي يقرر البذل والوفرايم ومن باستطاعته الدس لدى المدير » اما التيار الحقيقي الجارف في قلب المصلحة والذي يعرك الامور ويوجهها « فقد كان يقوم على اناس تجد منهم سكرتير المدير مثلا او موظفا في قسم المستخدمين . واخر عجوز في مكتب المراقب العام قربت احالته على الماش مع كل ابتساماتهم المؤدبة » وهذه الفئة التي تحمي الجندي عندما يخطيء . فمتدا انفجر ضيقها في شكوى تقدمت بها للمدير لم يفعل اكثر من ان يتعهد له الجندي بعدم التعرض لها مرة ثانية .. وهذا يكفي ..

لكنها وجدت الدواء اخيرا .. وهو الاهمال .. « لكنا منات الجندي او ما ولد قط » .. وماتت مشكلتها الاولى بالنسبة للعمل لمدة مؤقتة . لتتجسم المشكلة الاخرى ، وهي مصروفات اخيها الذي اصبح حرمانه من الامتحان امرا لا مفر منه . ويعلم الزملاء بالكتب هذه الحقيقة وربما ارتاحوا لها فان ذلك يعني انها في ضيق مادي . وبذلك يكون من السهل ضمها بحكم قانونهم الي « فرقتهم » حيث « اكل العيش » وبقي ان يعرض عليها الامر بعد ان وثقوا من قبوله . وبقي ان يرسو الاختيار على من يقوم بعملية عرض الصفقة ، واخلاء المكتب للجندي لينفرد بسناء « وعبارة » « بك » ذلك الزبون او العميل الذي تكون معه ومع امثاله دائما مثل هذه الصفقات .. وان كانت الصفقة الجديدة التي يود ان يكسبها هذه المرة تختلف عن سابقتها .. فليست « النقود » هذه المرة هي مرادهم .. بل سناء .. يكسيونها الي جانبهم حتى تصير منهم وحتى لا تكون نشازا يلقفهم ويهددهم ويخرس اصواتهم .. وعاشت سناء هذه اللحظات على اعصابها .. فلم ينقذها تظاهرها بالعمل وانهماكها فيه من ان تتفادى سماع الحديث بين الجندي و « الزبون » في الوقت الذي وجدت نفسها فيه عاجزة عن مغادرة المكان .. وانحصرت قراراتها في ان تسمع حديث الجندي الذي يؤكد فيه ان الخمسين جنيها التي يدفعا « الزبون » نظير استخراج التصريح . انما تقسم بينهم جميعا .. حتى سناء لها نصيبها .

وهنا تكتشف المسكينة انها غارقة الى قمة رأسها في هوة كائنا حفرت داخلها في لح البصر ، ومضت بسرعة مجنونة تتسع وتعمق وتحتويها .. وارطمت انفعالها المتوقدة مع عزيمتها الضيقة .. ربما لتزاجم ما تريد قوله . ذلك الازدحام الخائق من الفاظ السباب .. التي تحفظها والتي سمعتها وتخرجت طول حياتها عن ذكرها . وارتادت لحظتها بمثل ما لم ترد به اي شيء خلال عمرها كله ان تقولها وتردها .. مثنى .. وثلاث .. ورباع ، وبينما انطلقت الثورة في داخلها ظل خارجها مشلولاً تماما . ولم يكن غير الدموع التي انفجرت فجأة .. دافقة غزيرة وتحت ضغط كالنساء المملوء عندما يصيبه ثقب .. واحتكمت حلقات الازمة وكثرت الاقتراحات ، هل يبادرون هم بان يلفوا عنها على انها هي المرتشية ؟؟ ام .. ماذا ، ماذا .. ماذا ، ولم يكن هناك خيرا من ان يستكشفوا اعماقها ونواياها تجاههم اولا بعد ان هزتهم صدمة الفشل في ضمها اليهم . ووقف الباشكاتب وهو رئيس المكتب بما فيه الجندي وسناء .. وتحدث بلهجة ابوية مصطنعة ليطيب خاطرها ان كانت قد اخرجت من تصرفات الجندي .. في الوقت الذي يشرح لها فيه حياته وظروفه وهمومه .. فلعل .. لعسى !! فتحدثت عن الماهية التي لا تتعدى تسعة عشر جنيها ، بينما مصاريفه لا تقل عن الخمسين .. فالاولاد تتعلم في الجامعات والمعاهد والمدارس الثانوية ، وهم ايضا ياكلون .. ثم الايجار والدواء والحياة .. و .. الخ

وعلى الرغم من ان ظروف سناء تكاد تفوق ذلك في حدتها وقسوتها

التي بلغت حد العجز عن دفع مصروفات اخيها الصغير الذي لا يتعلم في جامعة او معهد او حتى مدرسة ثانوية .. على الرغم من ذلك لم تقبل قط واحدة منهم .. ان تكون مرتشية .. ويخيب امل الباشكاتب من جديد .. لكنهما يتتبعان الى حل وسط ، وهو ان يسير كل منهم في طريقه الخاص .. فليسيروا هم في طريقهم .. اما هي فان تسير معهم ولن تعترض سيرهم .. واحسوا بالذنب !!

والذنب لا يحسد البريء .. لكنه يكرهه ويحس به كانه ضميره .. وكان الضمير هو الجزء البريء في قلب المذنب . وسناء ذلك الجزء .. ذلك الركن الخامس البريء في المكتب . وكان لا بد ان تحدث ارتباكات في سير العمل .. عملها الخاص وليس العمل الطبيعي واخذت الاتفاقات تعقد سرا مع « الزبون » .. وكل يحاول ان يقضي الثمن بعيدا عن الركن الخامس .. مهما طال وقت التجربة فلا بد من ان تكون لها نتيجة .. وبقي ان يأتي ذلك اليوم الذي ترى فيه .. حتى وافتها فرصة لقاء زميلاتها من المكاتب الاخرى في احدى الحفلات التي اقيمت لاحياء يوم مولد زميلة .. وبدأت علامات الاستفهام تتفقر ، وتتلاشى ، وتلويب . فان ما يحدث في مكتب التصاريح يحدث في كافة المكاتب الاخرى .. وانما الجندي صورة منسوخة وعلى شاكلتها كل الموظفين .. ونفس الاسلوب في محاولة ضم باقي الزميلات .. لكنه نجح في المكاتب الاخرى . عندما ابتلع « نجاة » وضاعت .. ربما في ازدحام خانق مثل الذي تعرضت له سناء .. واحسوا بالخسارة .. فلقد نجح عالم الرجال والاخلاق واكل العيش في ان يبتلع زميله منهم ... وذابت .. ذابت .. ذابت .. وممرت ايام سناء بسيطة مثلها .. محدودة حتى في عواطفها كانت بعيدة عما هو « عيب » فلم يجرها ارتطام حياتها بالواقع السي الاغراق او نبذ القيم . ولكن الزمن ليس شيئاً منفصلا عن حياة الانسان فالزمن بمثابة شيء يمر حاملا معه اشياء تتحرك اثرها في الانسان نتوءا هنا .. او اثرا لجرح هناك ، فدار رأس سناء الصغير باحلام بعيدة .. حياة الثروة والغنى والطموح ، احلام تتغير هي الاخرى وتتجدد .. تماما مثلما تتغير الايام .. وماذا يقابل هذه الاحلام ؟؟ الواقع الذي ترتطم به ... ويحطمها .. ويحيلها الى رماد .. مصاريف اخيها المطلوبة في الصباح ، والتي لم تجد اي منفذ تحصل عليها منه ... ولن يفتح السقف في الليل وتحدث معجزة الاله وتتساقط النقود .. لن تحدث المعجزة .. لماذا .. لا شك ان المعجزات يصنعها الانسان ولا يصنعها الاله .. فالجندي والباشكاتب وغيرهم .. يصنعون المعجزات بايديهم ويربون اولادهم في المدارس والجامعات والمعاهد .. بينما هي تعجز ان تجد مصروفات ولد واحد ... لماذا لا تصنع هي المعجزة ؟ .. ان ثمنها بسيط ... !! فلقد حافظت على نفسها حتى تظل صفحة ناصعة البياض .. بعيدة عن النفاق والموارة واللصوصية ... ومن اجل ذلك ضاع اخوها . نعم من اجل ذلك . وتساءلت .. هل هي في ذلك انانية .. احتفظت بكل ذلك لنفسها لكي يضيع اخوها .. ؟ انه تماما كالنبتات ، لا يهمه سوى مطلبه من القذار لا يهمه ابدا نسوع المصدر ، ترى هل يفقر لها الان او حينما يكبر ، ان الجندي والباشكاتب وكلهم قبلوا ان يلوثوا انفسهم من اجل الجيش الجرار الذي اوجدوه على سطح الارض ، انهم لانظف الف مرة منها ، وتكررت لكل موافقها السابقة وربما بصقت عليها وبدأت تقدر افكارها الجديدة وتحترمها وبذلك اصبحت لقمة سائفة امام الجندي والزملاء بالمكتب ، وحبان الوقت لكي تصبح مثل نجاة ومثل الجندي .. ومثل كل الرجال في المصلحة .. فقد اتى الزبون ليستخرج تصريحها والمكتب خال الا من سناء .. وقامت سناء بالمهمة التي كان يقوم بها الجندي تماما في كل شيء .. حتى في رزمة الاوراق فئة الخمسة جنيها التي دست في مكتبها .. ولم يحدث شيء اكثر من ان القلم اهتز في يدها بعض الوقت .. ثم واصل سيره .. وتولفت عينها بعض الوقت على الرزمة المكونة في الدرج ، ثم واصلت عملها ، ثم اكتشفت ان ذلك يعلمه الجميع وترتيا منهم .. فقد حمدوا الله على انها قبلت « الرشوة » واصبحت تماما مثلهم ، لم تعد شيئاً خطيرا يتهددهم .. ويتسم الجندي ...

ويسألها ان تحدد مكان اللقاء ، وتنتهي القصة .

ويبقى القارئ في حالة انفعال وثورة ، بعد ان وضعه يوسف ادريس امام معالم الصراع الانساني متجسمة في شيئين : اولهما ذلك الصراع العام الدائم دوام الانسانية .. ذلك الصراع القائم بين الماديات .. والقيم والذي تمثل في الجندي وتصرفاته من ناحية وسناء ومواقفها من ناحية اخرى .

والنوع الاخر من الصراع .. هو ما يكون بين الانسان وذاته .. او بين الانسان ونفسه في مواجهة موقف معين لاسيما تلك التي تربط بحياة الانسان وافكاره ومبادئه . وقد تمثل ذلك في صراع سناء داخل نفسها .. والتيارات التي تنازعتها وانتهت بها اخيرا للسقوط .

ولقد كان الصراع بين الماديات والقيم في هذه القصة صراعا بين ميدانين ، لكل منهما قواعده وجنوده والتحمسين للدفاع عنه ووجهات النظر التي تبرر وجوده واستطاع يوسف ادريس ان يخلق هذه الصورة ويجسدها ويرجعها المرجع الطبقي . بمعنى انها ليست تصرفات فردية، حدثت عفوا او نتيجة ظروف ومواقف طارئة .. بل رتبته على اساس مدروس لا يمكن ان يقبل تحويلا او تبديلا . ولذلك فهو لم يتكلم عن حياة الطبقة « السوقية » من الناس والا لاصبح الامر في صورة « شكوى » او « مظلمة » رفعها الكاتب ضد فئة لا ترضيه .. وفي الوقت نفسه لم يكتب بان يزيح عنها الستار حتى تتضح وتفضح امام القارئ .. بل رأى ان يقوض الى اعماقها ليكشف لنا الجانب الاخر الذي يحرك هذه الطبقة ويدفعها وينظمها على هذا النحو . وعندما فعل يوسف ادريس ذلك لم يتدخل هو او يفرض نفسه على القارئ . او بمعنى اخر لم يبد رأيا في السوقية بل وضعها امام القارئ بكل ما فيها من حقارة وشذوذ وكذب تماما مثلما كان يفعل « تشيكوف » عندما يتناول هذه الطبقة في قصصه ، فيكتفي بان يصورها واضحا امامنا لوحة كبيرة تتناول الجزئيات والمفارقات والخطوط التي تحدد معالم الانسان المزيف .. ويترك للقارئ وحده مهمة الحكم وفرض الفروض وتقرير النتائج ..

ولذلك كانت « العيب » خالية من الشعارات في نفس الوقت الذي ازدحمت فيه بالانفعالات حتى مبادئ الاشخاص وقيمتهم مهما كانت حقيرة او قيمة ، لم تحس فيها صرخة الشعار او الهتاف . فالذي يسمع محمد الجندي وهو يردد « مانورته » التي يعتبرها خالدة ابدا وهي ان الفلوس Is the Master Key اي انها مفتاح كل شيء .. السعادة ، والدنيا ، وقلوب الحالمين والمحتاجين ايضا ، لا يشعر انها منفصلة انفعالا غوغائيا او انفعالا هائفا ، بل يجد نفسه امام فكرة نبئت من بين افكار انسان تعيس على استعداد لان يضحى بكل شيء في سبيل المادة التي يعتبرها كل شيء .. وهذه العبارة يضعها يوسف ادريس كمنوان لطبقة كاملة ولعله بذلك يحدد الهدف فهو مبدؤها الذي تدافع عنه وتسانده وتحاول الترويج له بكل وسيلة حتى ولو كان ذلك على حساب راحة الفم او مستقبله او حياته .. فلا يهم الجندي وطائفته مثلا ان يلصق بسناء اتهام « الرشوة » في حالة افتتاح امرهم .. ولا مانع عندهم من ان يلصقوا بها كل حفاتهم وكل سرفاتهم على انها شيء منبوذ لديهم ولا يقبلونه ، لان « الانانية » التي تركب عليها حياة هؤلاء لا يمكن ان ترسم للانسان غير ذاته .. وذاته فقط . وبذلك فانها شوكة بعيدة الاغوار في حلق كل انسان مخلص .. او انسان له مثله وقيمه التي تتعارض مع تطفلها وزيفها .. تعذب .. وتلفقه ، ويصرخ باعلى صوته تماما مثلما صرخت سناء من تصرفات الجندي .. لكن صرخاتها لم يكن ليسمعه احد .. فان ضوضاء السوقية في كل مكان يطفى على جميع الاصوات وجميع الانات ويحجب حتى نداء الاستنفاتة وتحمل غشاها الضبابي ، ومن خلفه يموت الانسان دون ان يشعر به احد .. ولا حتى المسؤولون . فلقد رأينا سناء تشكو وتشكو ويسمع المسؤولون .. وتنتهي بلا شيء .

وكان يوسف ادريس عميقا في نظرتة حيال المجتمع ليكشف لنا ويختار هذه الفئة التي تنخر في عظام الموظفين في المصالح الحكومية ..

بل يحترمون كل الانظمة وخطرهم ليس قاصرا على مكان .. فهم في المصالح الحكومية .. بيدهم النقل والانتداب وتقرير الاوفراتيم والرفق ايضا .. وهذا النموذج موجود بالفعل للان في الكثير من المصالح الحكومية ، والاهم من ذلك انها بينما تمثت هذا الميث وتهدت حياة الناس لا يوجد وراءها من يحاسبها او يقلم اظفارها .. فان محمد الجندي .. دائم الغياب .. ولا يعمل بمليص .. ولص ، ويتطفل على حياة الناس .. ويعيش ..

وحتى المبررات التي تسوقها هذه الطبقة مبررات واهية زائفة مثلها تماما .. فانا نرى الباشكاتب يلوم ابنه الاصغر عندما سرق « اصبع طباشير » من مدرس الرسم بينما لا يلوم نفسه عندما يسرق هو ما يكفي لان يفتح مصنعا للطباشير .. وهناك الموظف الذي يصلي ، ويصوم ، ويسرق .. وعندما تساله يجيبك .. يا ولد العم ، هادي نقره ، وهادي نقره اي ان الصلاة والصوم شيء والسرقه شيء اخر .. لا علاقة ولا رابط .. ولا حرام ، ولا يمكن ان يتعارضوا على الاطلاق ، بل الادهى من ذلك انه عندما تعقد صفقة يقرأون الفاتحة !!

امام هذه الطبقة بهذا الاسلوب تقف « سناء » البنت .. الساذجة الفطرية .. ولعل يوسف ادريس قد اختار البطل الذي يقف امام هذا التيار فتاة ولم يختار رجلا .. ربما ليجسد معالم الصراع ويوضحها .. فلو كان البطل رجلا لوجهه القارئ ندا لمواجهة هذه المواقف والاحتمالات التي تعرضت لها سناء .. ويشعر بان موقف البطل موقف طبيعي جدا لا يمكن ان يفعل غيره ، ويعني ايضا بهذا العنصر « النسائي » ان يكون رمزا لشيء جديد في حياة المصلحة ونظمها ورجالها ، ثم يحدد معالم هذا الجنس النسائي في سناء التي بلغت بها البساطة حدا بعيدا . ولم تكن الوظيفة الا لتحل محل المدرسة فقط . مكان تستنفد فيه طاقتها من اجل شيء معين ..

وبموقف سناء الصلب الجامد في وجه تيار السوقية يؤكد به يوسف ادريس انتصار الانسان والقيم على المادة في اعظم صورته وبشكل يجعل القارئ نفسه يتخذ موقفا مميئا ... فهو يعطف على سناء . ويتحمس لها ويتألم من اجلها .. ولعله بكى عندما سقطت ، فسقوطها يعني سقوط مثل الانسان وقيمه في الوقت الذي لا يمكن ان يعطف على الجندي او طبقتة مهما كانت الظروف التي يمر بها .. ولكن يوسف ادريس وقد نجح في كل هذا .. واستطاع ان يجعل القارئ احد اطراف النزاع بين الماديات والقيم .. فانه لم يذكر لنا من قريب او بعيد ان هذه الطبقة السوقية التي يتألم منها المجتمع .. يخلقها المجتمع بانظمتة الفاسدة ، فالانسان يولد نقيبا تماما في نقاء سناء ثم لا يلبث ان يتلوث تحت ضغط ظروف مميئة والخالق لهذه الظروف اشياء كثيرة وهكذا فان السوقية تخلق السوقية !! ولكن من الذي يخلق السوقية ?? هذا هو السؤال الذي لم يجب عليه يوسف ادريس .. وماتت البطله دون ان تقوله ..

كرم شلبي

القاهرة

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب